

@Arab\_books

# الإرادة الحرة

سام هاريس

# الإرادة الحرة

سام هاريس

ترجمة  
هبة خطاب

إعداد وتصميم الكتاب  
حميد خطاب

# مقدمة

تتعلق مسألة الإرادة الحرة تقريبا بكل ما يهمنا. الأخلاقيات، القانون، السياسة، الدين، السياسة العامة، العلاقات الحميمة، الشعور بالذنب والإنجاز الشخصي. يبدو أن كل ما هو إنساني بشأن حيواتنا يعتمد على رؤيتنا لغيرنا كأشخاص ذوي إرادة مستقلة قادرين على الاختيار الحر.

لو حدث أن أعلن المجتمع العلمي كون الإرادة الحرة

وهم فإن الحرب التي سيثيرها مثل هذا الإعلان هي أكثر ضراوة من الحرب التي أثارها موضوع التطور.

بدون الإرادة الحرة سيصبح المذنبون والمجرمون مجرد ساعات تم تدرجها بشكل سيء، وأى تصور للعدالة يتطلب عقابهم (بدلاً من ردعهم، إعادة تأهيلهم أو ببساطة احتوائهم) سوف يبدو غير منطقي.

كما أن من يعملون بجد ويلتزمون القوانين منا لن يستحقوا النجاح بمعناه العميق. ليست مجرد صدفة أن يجد معظم الناس هذه الاستنتاجات بغیضة، إن المخاطر عالية.

في الصباح الباكر من يوم 23 يوليو عام 2007، وصل ستيفن هايس و جوشوا كومسرجفسكى - وهما مجرمان- الى بيت الدكتور ويليام بيتيت وزوجته جينفر في شيشاير وهي بلدة هادئة في وسط ولاية كونيتيكت. وجدوا الدكتور ويليام نائم على أريكة بغرفة تطل على خارج المنزل. وقف جوشوا - طبقاً لإعترافه المصور- ازاء الرجل النائم بضع دقائق متردداً قبل أن يضربه على رأسه بمضرب بيسبول. ادعى جوشوا أن صرخات الضحية حركت شيئاً ما

بداخله، واستمر بضرب ويليام بكل قوته حتى سكت.

قام الرجلان بتقييد يد ويليام وقدميه وصعدوا لتفتيش باقي المنزل. وجدوا جينفر بيتيت وابنتيها - هايلي، 17 سنة وميشيلا، 11 سنة - مازالوا نائمين. قاموا بإيقاظ الثلاثة وقيدوهم إلى أسرتهن.

في الساعة صباحا، ذهب ستيفن إلى محطة البنزين وقام بشراء أربع جالونات من البنزين. وفي التاسعة والنصف قام بإيصال جينفر بيتيت إلى البنك لكي تقوم بسحب مبلغ 15000 دولار نقدا. الحوار الذي دار بين جينيفر وموظف البنك كان مفاده أنها لا تعلم بإصابة زوجها وأنها تصدق أن الخاطفين سوف يتركوا عائلتها سالمة.

بينما كان ستيفن والأم بالخارج، قام جوشوا بتسليّة نفسه بالتقاط صور عارية لميشيلا بهاتفه المحمول والاستمناة عليها. عندما عاد ستيفن وجنيفر، اقتسم الرجلان المال وقررا باختصار ما يجب فعله، قرروا أنه يجب على ستيفن أن يأخذ جينفر إلى غرفة

المعيشة ويقوم باغتصابها وهو ما فعله. قام بعد ذلك  
بخنقها وهو ما فاجأ شريكه.

هنا لاحظ الرجلان أن ويليام بيتيت تحرر من قيوده  
وهرب، بدأ الفرع يتملكهما، قاما سريعا بإغراق  
المنزل بالبنزين وأشعلا النيران فيه. عندما سألتهم  
الشرطة لماذا لم يحررا الفتاتين قبل إشعال الحريق،  
قال جوشوا: "فقط لم أفكر في الأمر". ماتت الفتاتان  
إثر استنشاق الدخان، وكان ويليام بيتيت هو الناجي  
الوحيد من الهجوم.

عندما نسمع عن جرائم من هذا النوع، يشعر معظمنا  
بشكل طبيعي أن جوشوا وستيفن يجب أن يتحملا  
المسئولية الأخلاقية لأفعالهم. وإذا كنا قريبين من  
عائلة بيتيت سوف يشعر كثير منا بمبرر لقتل هؤلاء  
الوحوش بأيدينا. هل سوف نهتم إذا ما علمنا أن  
ستيفن قد أبدى علامات على الندم وأقدم على محاولة  
انتحار؟ حقيقة لا.

ماذا عن حقيقة أن جوشوا قد تعرض للاغتصاب مرارا  
في طفولته؟ كما كتب في مذكراته أنه كان بقدر ما  
يذكر يشعر أنه مختلف عن الآخرين، متضرر نفسيا

ولديه قدر هائل من البرود. كما ادعى أيضا أنه فوجئ بما فعل في بيت عائلة بيتيت؛ هو لص وليس بقاتل، ولم ينو قتل أحد. هذه التفاصيل من الممكن أن توقفنا قليلا.

كما سنرى، كون مجرمين كستيفين وجوشوا يمكن الوثوق بهم في حديثهم عن مشاعرهم ونواياهم ليس هو المقصد؛ أيا كانت دوافعهم الواعية، هؤلاء لا يعلمون لمَ هم كذلك. كما لا أنه لا يحسب لنا أننا لسنا مثلهم. بقدر ما أجد سلوكهم مقرر، يجب أن أعترف أنه لو قدر لي أن أكون مكان أحدهم بشكل كامل، سوف أكون هو؛ لا يوجد جزء إضافي منى يمكنه أن يقرر ويرى العالم بشكل مختلف، أو يقاوم دوافع ايذاء الآخرين. حتى لو آمنت ان لكل إنسان روح خالدة، سوف تبقى مشكلة المسؤولية قائمة، لا يمكن أن أفخر بحقيقة أنني لا أملك روح مختل عقليا.

لو كنت مكان جوشوا يوم 23 يوليو 2007، بحيث امتلك جيناته وخبراته الحياتية وعقل مطابق لعقله - أو روح مطابقة- لكان تصرفى مطابقا له. لا يوجد طريقة فكرية محترمة لإنكار ذلك، يبدو دور الحظ حاسما.

بالطبع لو علمنا أن كلا الرجلين يعانيان من أورام فى  
المخ توضح سلوكهم العنيف، سوف يتغير حدسنا  
الأخلاقى بشكل كبير. لكن الإضطرابات العصبية تبدو  
حالة خاصة من النشاطات الجسدية التى تؤدى إلى  
أفكار وأفعال.

لذا فإن فهم الفسيولوجيا العصبية للدماغ سوف يؤدى  
إلى الحكم ببرائته بقدر ماسيؤدى اكتشاف الإصابة  
بورم. كيف يمكننا أن ننظر إلى حيواتنا، ونحاسب  
الناس على اختياراتهم على اعتبار الجذور غير  
الواعية لعقولنا الواعية؟

الإرادة الحرة هى وهم. نحن ببساطة لانصنع إرادتنا.  
الأفكار والنوايا تنشأ من أسباب خلفية لا نعيها ولا  
نملك سيطرة واعية عليها. نحن لا نملك الحرية كما  
نعتقد.

فى واقع الأمر الإرادة الحرة هى أكثر من وهم (أو  
أقل)، من حيث كونها غير متماسكة كمفهوم. إما أن  
هناك مسببات مسبقة لإرادتنا ونحن غير مسئولين  
عنها أو هى نتيجة الصدفة ونحن أيضا غير مسئولين



عنها.

إذا ما كان ما يحدد خيار شخص ما بقتل الرئيس هو نمط معين من النشاط العصبي، والذي بالتالي ناتج عن أسباب مسبقة – ربما مصادفة مؤسفة من الجينات السيئة، طفولة غير سعيدة، افتقاد إلى النوم أو التعرض لأشعة كونية- مالمذى يعنيه القول بأن إرادته حرة؟ لم يصف أحد طريقة يمكن أن تنتج العمليات العقلية والبدنية بشكل يشهد على وجود تلك الحرية. معظم الأوهام تنشأ من أشياء أكثر صرامة.

ان مفهوم الارادة الحرة الشهير يرتكز على افتراضين:

(1) أن كل منا كان يمكنه التصرف بشكل مختلف عما فعل في الماضى.

(2) أننا نمثل المصدر الواعى لمعظم أفكارنا وأفعالنا فى الحاضر.

كما سوف نرى، كلا الافتراضين خاطئ.

لكن الحقيقة الأعمق هى أن الإرادة الحرة لا تتوافق

مع أى حقيقة شخصية تخصنا، وبالتأمل يتضح لنا  
التعارض مع الفكرة بقدر تعارضها مع قوانين  
الفيزياء. أفعال الإرادة تنشأ بشكل عفوى ( كونها  
مسببة، غير مسببة، أو محتملة الانحراف، لا فارق)  
ولا يمكن تتبعها إلى مصدرها فى عقلنا الواعى. دقيقة  
أو اثنتان من التدقيق الذاتى وسوف تلاحظ أنك لاتملك  
قرار الفكرة القادمة بعقلك أكثر مما تملك أن تقرر  
الفكرة القادمة التى سأكتب.



# الفصل الأول:

"الجنود غير الواعية للإرادة"

نحن نعى جزء ضئيل من المعلومات التي تقوم عقولنا بمعالجتها كل دقيقة. على الرغم من ملاحظتنا المستمرة للتغيرات في خبراتنا- في الأفكار، الحالة المزاجية، الإدراك، السلوك.. إلخ - نحن غير واعين تماما بالأحداث العصبية التي تنتجهم.

في حقيقة الأمر، نحن شهود سيئين على التجربة نفسها، بإمكان الآخرين غالبا بمجرد النظر إلى وجهك أو الإستماع إلى نبرة صوتك أن يصبحوا أكثر إدراكا منك بحالتك العقلية ودوافعك.

عادة ما أبدأ يومى بفنجان من القهوة أو الشاي، أحيانا اثنين. صباح اليوم تناولت القهوة (فنجانين)، لم أتناول شاي؟ لست في موقف يسمح لى أن أعلم. لقد أردت القهوة أكثر مما أردت الشاي اليوم، وكنت حر أن أحصل على ما أريد. هل اخترت القهوة وليس الشاي واعيا؟ لا.

لقد تم اتخاذ القرار نيابة عنى عن طريق أحداث فى عقلى والتي لم أستطع - كمراقب واعى لأفكارى وأفعالى - أن أتدخل فيها أو أوثر عليها. هل كان بإمكانى أن أغير رأيي وأطلب الشاي قبل أن يحصل

الشخص الراغب فى القهوة داخلى على مبتغاه؟ نعم، لكن هذا الدافع أيضا سيكون ناتج عن أسباب فى اللاوعى. لماذا لم يظهر هذا الدافع اليوم؟ ولم قد يظهر مستقبلا؟ لا يمكننى أن أعلم. النية لعمل شئ ما وليس شئ آخر لا "تنشأ" فى الوعى، لكنها بالأحرى "تظهر" فى الوعى، كما تفعل أى فكرة أو دافع معاكس.

استخدم عالم الفسيولوجى (علم وظائف الأعضاء) بنجامين ليبيت الرسم الكهربائى للمخ لتوضيح أنه يمكن الكشف عن نشاط فى القشرة الحركية للدماغ قبل أن يشعر الشخص بأنه قرر الحركة بحوالى 300 ميلي ثانية. قام معمل آخر باستكمال هذا العمل باستخدام التصوير الوظيفى بالرنين المغناطيسى: طلب من الحالات الضغط على أحد زررين أثناء مشاهدتهم ساعة مكونة من تتابع عشوائى من الحروف تظهر على شاشة. قاموا بتقرير أى حرف يظهر فى اللحظة التى قرروا فيها الضغط على أحد الزرين. وجد القائمون على التجربة منطقتين فى الدماغ احتوا على معلومات عن أى الزرين سوف تقوم الحالة بالضغط عليه قبل 7 إلى 10 ثوانى كاملة من اتخاذ الحالة للقرار الواعى.

مؤخرا، تسجيلات مباشرة من قشرة المخ أوضحت أن نشاط 256 خلية عصبية كان كافيا للتنبؤ بقرار شخص الحركة 700 ميلي ثانية قبل أن يصبح واعيا بالقرار بنسة دقة تصل إلى 80% .

هذه الإكتشافات من الصعب التوفيق بينها وبين الإحساس بأننا المؤلف الواعى لأفعالنا.

هناك الآن حقيقة واحدة غير قابلة للجدال: قبل أن تصبح واعيا بما سوف تفعله لاحقا ببعض لحظات- وهو وقت يبدو فيه بشكل شخصى أنك تملك مطلق الحرية للتصرف كما تريد -يكون مخك قد قام بالفعل بتحديد ما ستفعله. بعد ذلك تصبح واعيا بهذا القرار ومؤمننا أنك قمت باتخاذة.

التمايز بين النظامين الأعلى والأسفل لوظائف المخ لا يقدم مساعدة: إننى كمراقب واعى لخبرتى- لا يمكننى تخليق الأحداث فى الفص الأمامى لقشرة المخ أكثر مما أتحكم فى نبض قلبى.

سوف يبقى هناك دائما فارق زمنى بين بداية الأحداث

العصبية التي تشعل فكرتى الواعية التالية وبين الفكرة نفسها. حتى لو لم يوجد، حتى لو أن كل الحالات الذهنية هي حقا تزامن الحالات الكامنة في المخ، لا يمكننى أن أقرر ما الذى سأفكر فيه أو أنتويه حتى تنشأ الفكرة أو النية. ما الذى ستكون عليه حالتى الذهنية القادمة؟ لا أعلم، انها فقط تحدث. أين الحرية فى ذلك؟

تخيل آله ممتازة للتصوير العصبى تمكنا من كشف وتفسير أدق التغيرات فى وظائف الدماغ. يمكنك أن تقضى ساعة فى المعمل تفكر وتتصرف بحرية، فقط لتكتشف أن العلماء الذين يقومون بتصوير مخك كانوا قادرين على انتاج تسجيل كامل لكل ما تفكر فيه وتفعله لحظات قبل الحدث. على سبيل المثال، بالتحديد 10 دقائق و 10 ثوانى بداخل التجربة، تقرر أن تلتقط مجلة من منضدة قريبة وتبدأ فى قراءتها، لكن سجل الماسح الضوئى يسجل ظهور هذه الحالة العقلية عند 10 دقائق و 6 ثوانى، ويعلم القائمين على التجربة أيضا أى مجلة ستختار. تستمر فى القراءة لبعض الوقت ثم يصيبك الملل وتتوقف؛ هم أيضا علموا أنك ستتوقف ثانية قبل أن تفعل ويمكنهم كذلك إخبارك بآخر جملة سوف تقرأها.



وهكذا مع كل الأحداث الأخرى: لقد حاولت تذكر اسم الباحث الرئيسي القائم على التجربة، لكنك نسيتَه؛ بعد دقيقة أخرى تذكرت أنه "برينت" لكنه في الحقيقة "بريت". بعد ذلك قررت أنك سوف تذهب لشراء حذاء جديد بعد أن تغادر المعمل، ولكن في الفكرة التالية أدركت أن ابنك سوف يخرج من المدرسة مبكرا هذا اليوم، لذا لن يكون لديك وقت كافي للتسوق على كل حال. تخيل ما سيكون عليه الحال عندما ترى السجل الزمني لهذه الأحداث العقلية مع رؤية فيديو للسلوك المرتبط بها، مما يدل على أن القائمين على التجربة كانوا على علم بما سوف تفكر فيه وتفعله قبل أن تعلم أنت. سوف تستمر بالتأكيد في الشعور بالحرية في كل لحظة من الحاضر، لكن حقيقة أن شخص آخر بإمكانه أن يسجل ما الذي سوف تفكر فيه وتفعله سوف يفضح حقيقة هذا الشعور: إنه وهم. إذا لم تصدم قوانين الطبيعة معظمنا بكونها غير متوافقة مع الإرادة الحرة، فذلك لأننا لم نتخيل كيف يمكن أن يبدو السلوك الإنساني إذا ما فهمنا كل علاقات المسببات والمؤثرات.

من المهم أن نتبين أن القضية التي أبنيناها ضد الإرادة

الحررة لا تعتمد على فلسفة مادية (الإفترض بأن الواقع هو بالأساس مادي تماما).

لا يوجد شك أن - معظم إذا لم يكن كل - الأحداث العقلية هي نتيجة للأحداث الفيزيائية. المخ هو نظام فيزيائي، يخضع كلية لقوانين الطبيعة، ولدينا كل سبب للإعتقاد بأن التغيرات في حالته الوظيفية وبناءه المادي يوجه أفكارنا وأفعالنا كلية.

لكن حتى إذا ما كان العقل البشري مصنوع من أشياء روحية، لن يتغير شئ في حجتى. العمليات غير الواعية للروح لن تعطيك حرية أكبر مما تعطيك وظائف الأعضاء غير الواعية لمخك.

إذا لم تعلم ما سوف تفعله روحك لاحقاً، إذن أنت لا تملك السيطرة. يتضح صحة هذا في كل الحالات التي يتمنى فيها شخص ما أن يشعر أو يتصرف بشكل مختلف عما يفعله: فكر في ملايين من المسيحيين الملتزمين الذين تصادف أن تكون أرواحهم مصابة بشذوذ جنسى، عرضة للسمنة، أو تصاب بالملل أثناء الصلاة. على الرغم من ذلك، الإرادة الحرة لا تكون واضحة عندما يفعل شخص ما - عند إعادة النظر-

بالضبط ما كان يتمنى فعله. الروح التي تسمح لك  
بالالتزام بالحمية هي غامضة بقدر تلك التي تغريك  
بأكل فطيرة كرز على الإفطار.

هناك بالطبع فارق بين الأفعال الاختيارية والأفعال  
التلقائية لكن هذا لا يدعم فكرة الإرادة الحرة (ولا  
يعتمد عليها). الفعل الاختياري يصحبه شعور بالنية  
لعمله، بينما الفعل التلقائي ليس كذلك. لسنا بحاجة  
للقول أن هذا الفارق ينعكس على مستوى المخ. كما  
أن ما ينتويه الشخص واعيا يخبر الكثير عنه.

إنه شيء منطقي أن تتعامل مع شخص يستمتع بقتل  
الأطفال بشكل مختلف عن شخص صدم طفل بسيارته  
عن طريق الخطأ، لأن النية الواعية للأول تعطينا كثير  
من المعلومات عن كيفية سلوكه المستقبلي على  
الأرجح. لكن من أين تأتي النوايا نفسها، وما الذي  
يحدد شخصيتها في كل لحظة، يبقى غامض تماما  
بشكل ذاتي.

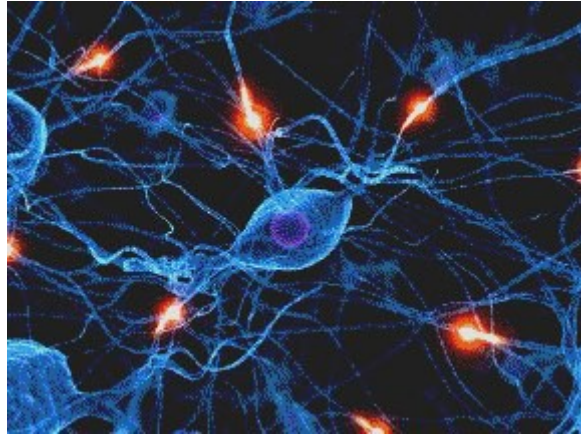
ينتج إحساسنا بالإرادة الحرة عن فشل في تقدير  
كوننا: لا نعلم ما الذي سننتويه حتى تنشأ النية نفسها.  
أن نفهم ذلك يعنى أن ندرك أننا لسنا المؤلف لأفكارنا

وأفعالنا بالطريقة التي يفترضها الناس عموماً.

بالطبع هذا الفهم لا يقلل من الحرية الإجتماعية أو السياسية، الحرية أن تفعل ما تنتوي، وليس شئ آخر، ليست أقل قيمة مما كانت عليه سابقاً. وجود بندقية موجهة إلى رأسك مازالت مشكلة تستوجب التصحيح، أيا ما كان مصدر النوايا.

لكن فكرة أننا -كأشخاص واعين- مسئولين بشكل عميق عن ملامح حيواتنا العقلية والسلوك التابع لها غير مترابطة مع الواقع ببساطة.

تخيل ما يتطلبه الأمر لكي يكون لديك إرادة حرة. يجب أن تكون واعى بكل العوامل التي تحدد أفكارك وأفعالك، ويجب أن تمتلك سيطرة كاملة على تلك العوامل. لكن يوجد هنا تناقض يبطل المفهوم المحدد للحرية، ما الذي يحرك المؤثرات؟ مؤثرات أخرى؟ أنت لست أى من تلك الحالات العقلية العارضة. أنت لا تتحكم فى العاصفة، لست تائها فيها، أنت العاصفة.



# الفصل الثاني:

"تغيير الموضوع"

يمكننا القول مطمئنين أنه لم يقد أحد بتأمل فكرة وجود الإرادة الحرة، بسبب كونها واعدة كفكرة مجردة. يرجع تحملنا لهذه الفكرة إلى حقيقة أن معظمنا يشعر أننا نؤلف بحرية أفكارنا وأفعالنا (على الرغم من صعوبة تفسير ذلك على أسس منطقية أو علمية). تبعا لذلك فإن فكرة الإرادة الحرة تتبع من تجربة شعورية. على الرغم من ذلك، يمكننا بسهولة شديدة أن نتغاضى عن هذه الحقيقة النفسية بمجرد أن نبدأ بمناقشة فلسفية.

في الأدب الفلسفي، نجد ثلاث اتجاهات رئيسية للمسألة: الحتمية، التحررية، والتكاملية.

## determinism, libertarianism, and compatibilism

الحتمية والتحررية كلاهما يعتبر أنه لو أن ما يحدد سلوكنا هو مؤثرات في الخلفية، إذن فالإرادة الحرة هي وهم. (لذا يشار لكليهما على أنهما منظوران "لا تكاملين").

الحتميون يؤمنون بأننا نعيش في هذا العالم، بينما

يؤمن التحرريون (الليبراليون) -ليس للمسمى علاقة  
بالإتجاه السياسى الذى يحمل نفس الإسم- أن  
المنظومة الإنسانية يجب أن تلو بشكل سحرى على  
خطة المسببات الفيزيائية. يستدعى التحرريون أحيانا  
كيان غيبى كالروح، كوسيلة لإرادتنا الحرة.

التكامليون، على الرغم من ذلك يزعمون أن الحتميين  
والتحرريين كلاهما مشوش وأن الإرادة الحرة تتوافق  
مع حقيقة الحتمية.

إن الطريقة الفلسفية الوحيدة المحترمة اليوم لتأييد  
الإرادة الحرة هى أن تكون تكامليا، لأننا نعلم أن  
الحتمية حقيقة بكل معنى يتصل بسلوك الإنسان.  
الأحداث العصبية فى اللاوعى تحدد أفكارنا وأفعالنا،  
وهى أيضا تحدد مسببات مسبقة لسنا على وعى بها  
ذاتيا. على الرغم من ذلك فإن الإرادة الحرة التى يدافع  
عنها التكامليون ليس هى نفسها التى يشعر معظم  
الناس أنها لديهم.

يدعى التكامليون بصفة عامة أن أن الشخص يكون  
حر طالما أنه حر من أى دوافع داخلية أو خارجية قد  
تمنعه من التصرف طبقا لرغباته ونواياه الحقيقية. إذا



ما أردت وعاء ثانى من المثلجات دون أن يجبرك أحد على تناوله، اذن تناول وعاء ثانى من المثلجات هو برهان كامل على حرية الإرادة. لكن فى حقيقة الأمر يدعى الناس استقلالية أكبر من ذلك.

إن حدسنا الأخلاقى وحسنا بالوكالة الشخصية يتعلق بشعور حسى بكوننا المصدر الواعى لأفكارنا وأفعالنا. عندما نقرر من نتزوج أو أى الكتب نقرأ، لا نشعر أننا مكرهون بأحداث مسبقة ليس لنا سيطرة عليها.

إن الحرية التى نفترضها لأنفسنا وننسبها بسهولة إلى الآخرين تبدو وكأنها تغفل تأثير الأسباب الخلفية غير الشخصية.

لحظة أن نرى أن هذه الأسباب مؤثرة بشكل كامل – كما يوضح أى سرد مفصل للفسولوجيا العصبية لأفكار وأفعال الإنسان- لن يمكننا عندها أن نجد ما نعلق عليه أفكارنا التقليدية عن المسئولية الشخصية.

ما الذى يعنيه قولنا أن المغتصبين والقتلة يرتكبون جرائمهم بإرادتهم الحرة؟

لو أن هذه العبارة تعنى شيئاً، فلا بد أن تعنى أنهم كانوا قادرين على التصرف بشكل مختلف – ليس استناداً الى مؤثرات عشوائية لا يسيطرون عليها، لكن لأنهم كأشخاص واعون كانوا قادرين على التفكير والتصرف بشكل مختلف.

أن تقول أنه كان بإمكانهم ألا يغتصبوا أو يقتلوا كالتقول أنه بإمكانهم مقاومة الدافع لفعل ذلك (أو قدرتهم على تجنب هكذا دافع بالكلية) بوجود الكون – متضمناً أدمغتهم- فى نفس الحالة التى ارتكبوا فيها جريمتهم تحديداً. لكن دون ذلك يتلاشى فجأة موضع لومنا ، حتى أن أكثر المختلين عقلياً إثارة للرعب سوف يبدوون ضحايا هم أنفسهم. اللحظة التى نرى فيها تتابع للأسباب التى تسبق قراراتهم الواعية، وصولاً إلى مرحلة الطفولة وما بعدها، يبدأ إثمهم فى الإختفاء.

لقد أنتج التكامليون أدب غزير كجهد للتحايل على هذه المشكلة. كانت النتيجة تشبه اللاهوت أكثر من أى منطقة أخرى فى الفلسفة الأكاديمية، (أعتقد أن ذلك ليس بصدفة، لقد كان الجهد فى المقام الأول يهدف إلى عدم السماح لقوانين الطبيعة بتجريدنا من وهمنا العزيز).

تبعاً للتكامليين، إذا ما أراد شخص ما ارتكاب جريمة قتل، وفعل ذلك بسبب هذه الرغبة، فإن أفعاله تشهد على حرية إرادته. من كلا الناحيتين الأخلاقية والعلمية، يبدو هذا تبذ متعمد. يملك الناس الكثير من الرغبات المحركة والتي يبدو بعضها مَرَضِي (وغير مرغوب فيه) حتى لمن يملكونها. معظم الناس محكومون بأهداف وتطلعات متعارضة: أنت تريد أن تنهى عملك، لكنك تميل إلى التوقف عن العمل لكي تتمكن من اللعب مع أطفالك. أنت تأمل في التوقف عن التدخين، لكنك تتوق إلى سيجارة أخرى. أنت تكافح من أجل ادخار بعض المال، لكنك تواجه اغراء شراء كمبيوتر جديد. أين هي الحرية عندما تنتصر إحدى هذه الرغبات على منافستها لسبب غير معلوم؟

مشكلة التكامليين أعمق من ذلك، إذ أين هي الحرية في أن تريد ما تريده بدون صراع داخلي على الإطلاق؟ أين هي الحرية في أن تكون راضيا تماما عن أفكارك، نواياك، وأفعالك اللاحقة في حين أنها نتاج أحداث مسبقة لا تملك يد تماما في خلقها؟

على سبيل المثال، لقد شربت توا كوب من الماء،

وأشعر برضا تام عن قرارى أن أفعل ذلك. لقد كنت عطشا، وشربى للماء يتطابق تماما مع رؤيتى لنفسى عندما أحتاج الى مشروب. كوني شربت كوب من الجعة مبكرا اليوم قد يجعلنى أشعر بالذنب؛ لكن شرب كوب من الماء فى أى وقت لا يمكن لومى عليه، وأنا راضى عن نفسى إلى حد ما. أين الحرية فى ذلك؟ يمكن أن يكون صحيح أننى إن أردت فعل شئ آخر لكنت فعلته، لكننى مع ذلك مضطر إلى فعل ما أريد فعله. ولا يمكننى تحديد ما أريد، أو التقرير مسبقا أيها سيكون فعال.

ببساطة فإن الكون يمدنى بحياتى العقلية. لماذا لم أقرر أن أشرب كوب من العصير؟ لم تخطر لى الفكرة. هل أنا حر فى فعل ما لم يخطر لى؟ بالطبع لا.

ولا يوجد طريقة يمكننى بها التأثير على رغباتى، أى وسيلة للتأثير ساستخدمها؟ رغبة أخرى؟ أن أقول أنه كان بإمكانى فعل غير ذلك إن أردت، مثل القول أنه كان بإمكانى الحياة فى عالم آخر إن كنت فى عالم آخر. لم يبلغ التكامليون شئ أكثر من التأكيد على العقيدة التالية: الدمية حرة طالما تحب الخيوط التى تحركها.

التكامليون يحبون اصرار صديقي دانيال دانيت أنه حتى لو كانت أفكارنا وأفعالنا هي نتاج مسببات غير واعية، فهي مازالت أفكارنا وأفعالنا. أى شئ تفعله أدمغتنا أو تقررره، سواء بوعى أو لا، هو شئ فعلناه نحن أو قررناه. حقيقة أننا لا يمكن أن نكون دائما واعين ذاتيا بأسباب أفعالنا لا تلغى الإرادة الحرة، لأن الفسيولوجيا العصبية الغير واعية الخاصة بنا هي "نحن" بقدر أفكارنا الواعية.

بمراعاة التالى، من توم كلارك من "مركز الطبيعية":

بالطبع هاريس على حق فى كوننا لا يمكننا الوصول بوعينا إلى العمليات العصبية التى نبني عليها اختياراتنا. لكن كما يشير دانيت دائما، فإن هذه العمليات هي ملكنا، بقدر ما هي جزء مما نحن عليه كأشخاص، هي تعبر عنا بقدر ادراكنا الواعى. لا يمكننا أن نفصل أنفسنا عن الفسيولوجيا العصبية الخاصة بنا والافتراض أن النفس الواعية – التى يعتقد هاريس أنها تشكل نفسنا الحقيقية (وكا يعتقد الكثيرون أيضا ربما) - يتم دفعها تحت سيطرة من خلايانا العصبية. بدلا من ذلك، نحن كأفراد نتكون من خلايا عصبية (من بين أشياء أخرى)، بعضهم يدعم

الوعى وبعضهم لا يفعل. إذن الإرادة الحرة ليست  
بوهم، كما يقول هاريس، أننا المؤلف لأفكارنا وأفعالنا،  
لسنا مجرد شهود على ما تقوم المسببات بطهيه.

نحن عمليا كأشخاص قادرين على التعمد والاختيار  
والتصرف، حتى لو لم يكن وعينا متحكما بشكل  
كامل. لذا فالشعور بكوننا المؤلف والمتحكم هو شعور  
صديق.

علاوة على ذلك، فإن العمليات العصبية (والتي بشكل  
ما هي المشكلة الصعبة في مسألة الوعى) التي تدعم  
الوعى هي اساسية في عملية الاختيار، لأن الأدلة  
تؤكد بقوة كونها مرتبطة بمرونة التصرف وتكامل  
المعلومات الذى يخدم التحكم فى السلوك. ولكن من  
المشكوك فيه أن الوعى فى حد ذاته يضيف أى شئ  
لهذه العمليات العصبية فى عملية التحكم فى الفعل.

إنها حقيقة أن البشر لا يمتلكون إرادة حرة لا سببية،  
لسنا آلهة صغيرة ذاتية السببية. لكننا حقيقة بقدر  
العمليات الجينية والبيئية التى خلقتنا وبقدر المواقف  
التى قمنا فيها بالاختيار. إن آلية التداول التى تدعم  
الفعل المؤثر هى حقيقية وفعالة بقدر أى عملية فى

الطبيعة. لذا لسنا مضطرين إلى الحديث وكأننا الوكلاء الحقيقيون لكي نلتق وهم مفيد ومحفز كالوكالة، وهو ما يرجح هاريس أننا نفعله في نهاية ملاحظاته عن الإرادة الحرة. الوكالة يمكنها أن تتغلب على الحتمية، لا مشكلة هناك.

هذا يوضح بشكل تام الفارق بين وجهة نظر دانيت ووجهة نظري (دانيت يوافق). كما قلت سابقا، أعتقد أن التكاملين يغيرون الموضوع كما يفعل دانيت: إنهم يستبدلون حقيقة نفسية – الخبرة الذاتية لكوننا وكلاء واعون – بمفهوم تصوري لأنفسنا كأشخاص. إن هذا بمثابة فخ وتحول. الحقيقة النفسية هي أن الناس يشعرون أنهم مطابقون لمسار معين من المعلومات في عقولهم الواعية.

دانيت يؤكد ببساطة أننا أكثر من ذلك. أننا نتواكب مع كل ما يجرى بداخل أجسادنا، سواء كنا واعين به أو لا، هذا بمثابة القول بأننا مصنوعون من غبار النجوم – ونحن كذلك. لكننا لا نشعر بأننا كذلك. ومعرفة أننا من غبار النجوم لا تحرك حدسنا الأخلاقي أو منظومة العدالة الجنائية لدينا.

في هذه اللحظة تقوم باتخاذ عدد غير محدود من القرارات باستخدام أعضاء غير عقلك، لكنها ليست أحداث تشعر بمسئولية عنها. هل تقوم بانتاج خلايا الدم الحمراء والإنزيمات الهضمية في هذه اللحظة؟ جسدك يقوم بهذه الأشياء بالطبع، لكن إذا ما قرر أن يفعل غير ذلك، سوف تكون أنت ضحية هذه التغييرات، أكثر من كونك سببها.

القول بأنك مسئول عن كل ما يجرى بداخل جلدك لأنه "أنت" هو إدعاء لا يمت بصلة للإحساس بالوكالة والمسئولية الأخلاقية التي جعلت من فكرة الإرادة الحرة مشكلة دائمة للفلسفة.

يوجد بكتريا في جسدك أكثر مما يوجد من خلايا بشرية. في حقيقة الأمر، 90% من الخلايا داخل جسمك هي ميكروبات مثل "أى كولاى" (و 99% من الجينات الوظيفية في جسمك تنتمى اليهم). كثير من هذه الكائنات الحية تؤدي وظائف ضرورية، انهم "أنت" بمفهوم أوسع. هل تشعر بتطابق معهم؟ إذا ما أسأوا التصرف، هل ستكون مسئول أخلاقيا؟

يشعر الناس أو يفترضون أنهم المؤلف لأفكارهم



وأفعالهم وهو افتراض وهمى. اذا ما أمكنا أن نكتشف اختياراتهم الواعية باستخدام ماسح ضوئى للمخ قبل ثانية من وعيهم بها، سوف يصابون بالدهشة، لأن ذلك سوف يمثل تحدى مباشر لوضعهم كوكلاء واعين يسيطرون على حيواتهم الداخلية. نحن نعلم أن بإمكاننا أن نقوم بمثل هذه التجربة، كمبدأ على الأقل، وإذا ما ادركنا الألة بشكل صحيح سيشعر الأشخاص قيد التجربة أننا نقرأ أفكارهم أو نتحكم فيها.

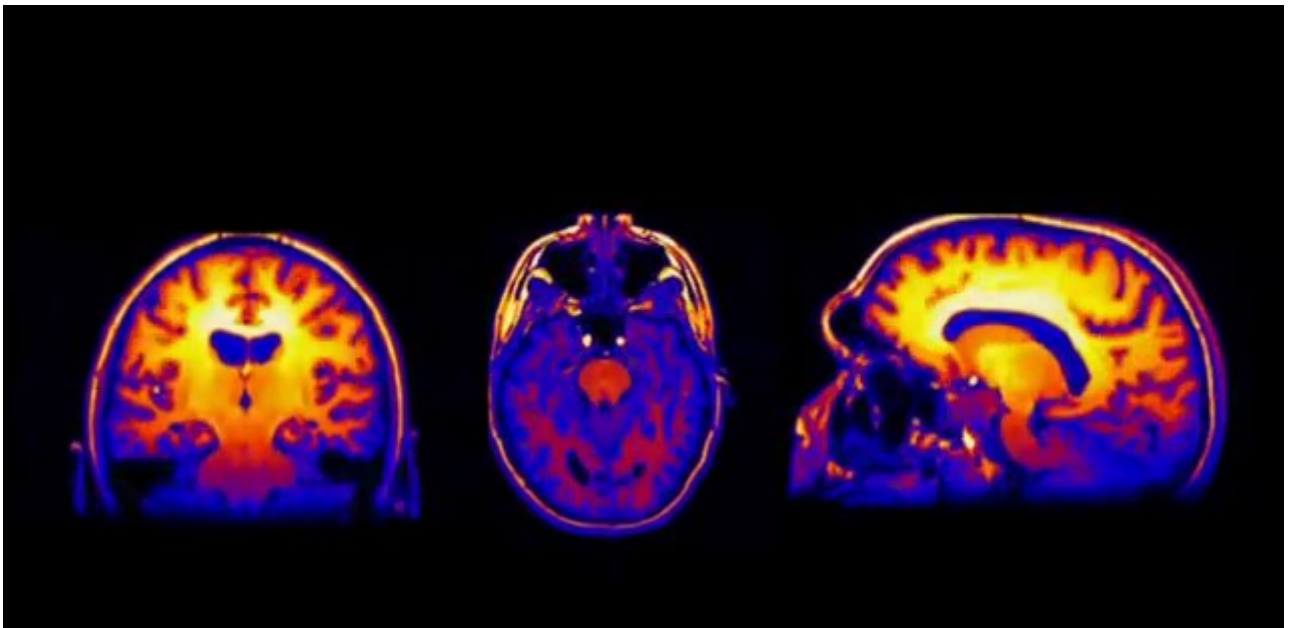
نحن نعلم أننا أحيانا نشعر بمسئولية عن أحداث ليس لنا عليها تأثير سببى. باستخدام شكل صحيح من التلاعب التجريبي، يمكن إيصال الناس إلى التصديق ببنيتهم الواعية لفعل فى حين أنهم لم يختاروا أو يسيطروا على هذا الفعل. فى إحدى التجارب طلب من الحالات أن يختاروا صور على شاشة باستخدام مؤشر الكمبيوتر. لقد مالوا للاعتقاد بأنهم قاموا بتحريك المؤشر إلى صورة معينة حتى عندما كان تحت السيطرة الكاملة لشخص آخر، طالما سمعوا اسم الصورة فى اللحظة التى تسبق توقف المؤشر.

الأشخاص المعرضون للتويم المغناطيسى يمكن اعطائهم اقتراحات مفصلة لأداء مهام غريبة، وعند

سؤالهم لم فعلوا تلك الأشياء، من الممكن أن يتحدثوا عن أسباب لسلوكهم ليس له علاقة بالسبب الحقيقي. لا يوجد شك في أن اسناد الوكالة لنا قد يكون خاطئاً أحياناً. ما أناقشه هو أنه دائماً خاطئ.

تخيل ادعاء شخص بأنه لا يحتاج إلى أكل من أي نوع، بدلاً من ذلك يمكنه أن يعيش على الضوء. من وقت لآخر، سوف يقوم ممارس يوجا هندي بهذا التفاخر، للسخرية من المتشككين. لا أحتاج إلى القول أنه لا يوجد سبب لأخذ مثل هذه الادعاءات مأخذ الجد، مهما كان مدى نحافة الهندي. على الرغم من ذلك، تكامل مثل دانيت يمكنه أن يدافع عن الدجال: الرجل يعيش فعلاً على الضوء، كلنا نفعل، لأنك عندما تتبع مصدر أي طعام، سوف تصل إلى شيء ما يعتمد على التمثيل الضوئي. عندما نأكل اللحم البقري نستهلك العشب الذي أكلته البقرة، والعشب نما على ضوء الشمس. إذن ممارس اليوجا ليس بكاذب على كل حال. لكن ليس تلك هي القدرة التي كان يروج لها، ويبقى ادعاؤه الأصلي غير أمين (أو وهمي). تلك هي مشكلة التكامليين، تحل مشكلة الإرادة الحرة عن طريق تجاهلها.

كيف يمكننا أن نكون أحرار إذا ما كان كل شئ نفعله  
بنية واعية كان سببه أحداث في عقلنا لم نتعمدها ولم  
نكن على وعى كامل بها؟ لا يمكننا ذلك. القول بأن  
عقلي قرر أن يفكر أو يتصرف بطريقة معينة – سواء  
بوعى أو بدون- وأن هذا هو أساس حرיתי، يعنى أن  
أتجاهل المصدر الأساسى لإيماننا بحرية الإرادة:  
الشعور بالوكالة الواعية. يشعر الناس أنهم المؤلف  
لأفكارهم وأفعالهم، وهذا هو السبب الوحيد لوجود  
مشكلة متعلقة بالإرادة الحرة تستحق المناقشة.



# الفصل الثالث:

"السبب والنتيجة"

من الناحية الفيزيائية، نعلم أن كل فعل إنسانى يمكن اختصاره إلى سلسلة من الأحداث غير الشخصية: يتم نسخ الجينات، يتم ربط التاقلات العصبية بمستقبلاتها، تتقلص الألياف العضلية، ويضغط جون دو زناد بندقيته.

ولكن من وجهة نظرنا الشائعة لفكرة وكالة الإنسان والمبادئ الأخلاقية، يبدو أن أفعالنا لا يمكن أن تكون مجرد منتج قانونى لتركيبنا البيولوجى، ظروفنا، أو أى شئ آخر يمكن الآخرين من التنبؤ بهم. نتيجة لذلك، يأمل بعض العلماء والفلاسفة أن الصدفة أو عدم اليقين فى ميكانيكا الكم يمكن أن يفسح مجال للإرادة الحرة.

على سبيل المثال، لاحظ عالم البيولوجى (علم الأحياء) مارتن هايزنبيرج أن عمليات معينة فى المخ، مثل عملية فتح وغلق القنوات الأيونية وعملية تحرر الحويصلات المتشابكة، تحدث بعشوائية، ولذا لا يمكن تحديدها بالمحفزات البيئية. تبعا لذلك، فإن كثير من سلوكنا يمكن اعتباره "ذاتى النشأة" وهنا كما يتصور، يكمن أساس حرية الإنسان. ولكن كيف لأحداث من هذا النوع أن تبرر الإرادة الحرة؟ "ذاتى النشأة" بهذا

المفهوم معناها أن أحداث معينة فقط تنشأ في المخ.

لو أن قرار تناولى كوب ثانى من القهوة صباح اليوم كان نتاج اطلاق عشوائى للناقلات العصبية، كيف يمكن اعتبار النشأة غير المحددة للحدث هي تمرين حر لإرادتى؟ لا يمكننى أن أتحمل مسئولية أحداث تتم بالصدفة. وإذا ما كانت سلوكيات محددة تنتج عن الصدفة، يجب أن يمثلوا مفاجأة حتى لى. كيف يمكن لكمان من هذا النوع أن تجعلنى حر؟

تخيل كيف ستكون حياتك إذا ما كانت كل أفعالك، نواياك، معتقداتك، ورغباتك "ذاتية النشأة" بهذا الشكل العشوائى. سوف تبدو بالكاد تمتلك عقل. سوف تبدو كشخص تعصف به رياح داخلية. الأفعال، النوايا، المعتقدات، والرغبات تتواجد فقط فى نظام تحكمه أنماط سلوكية وقوانين للتحفيز والاستجابة.

ان امكانية استخدام المنطق مع الآخرين – أو فهم كلامهم أو تصرفاتهم من الأساس – تعتمد على الافتراض بأن أفكارهم وأفعالهم سوف تسير بطاعة على قضبان واقع مشترك. يظل هذا صحيح عند محاولة فهم سلوكنا الشخصى أيضا. فى أقصى

الحدود، أحداث هازنبيرج العقلية "ذاتية النشأة"  
سوف تحول دون وجود عقل على الإطلاق.

عدم التحديد الخاص بميكانيكا الكم لا يترك موطن قدم:  
لو كان عقلي كميوتر كمي - على الأرجح الذبابة تملك  
مخ كمي أيضا. هل يتمتع الذباب بالإرادة الحرة؟ ان  
تأثير ميكانيكا الكم على الأرجح لن تصبح بارزة  
بيولوجيا.

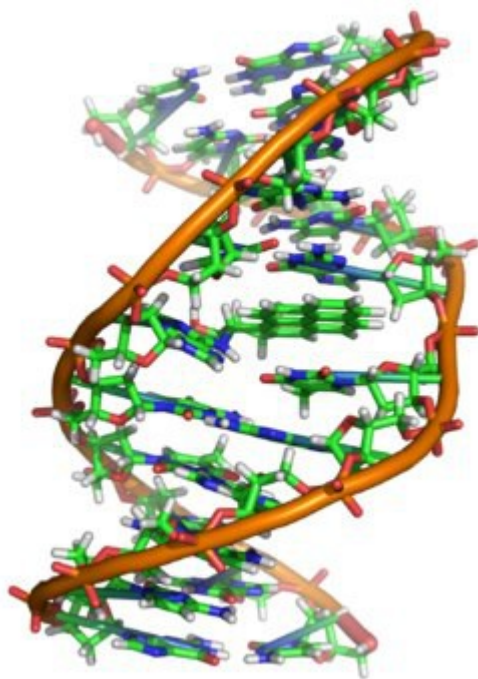
انها تلعب دور في التطور لأن الأشعة الكونية  
والجسيمات الأخرى ذات الطاقة العالية تسبب طفرات  
في الـ دي ان اى (الحمض النووي) (قوانين ميكانيكا  
الكم هي ما يحكم سلوك هذه الجسيمات التي تمر بنواة  
الخلية). التطور تبعا لذلك يبدو غير قابل للتوقع من  
حيث المبدأ.

لكن بعض علماء الأعصاب يرون المخ كمبيوتر كمي.  
وحي لو كان كذلك، لامحدودية قوانين الكم لا تساعد في  
جعل فكرة الإرادة الحرة أكثر وضوحا من الناحية  
العلمية. في مواجهة كل استقلال حقيقي من الأحداث  
المسبقة، كل فكرة أو حدث سوف تقابله عبارة: "لا  
أعلم ما حل بي."



لو أن الحتمية حقيقة، إذن المستقبل قد تم تقريره، وهذا يتضمن كل الحالات المستقبلية لعقولنا وكل السلوك التابع.

وبقدر كون قانون السبب والنتيجة يخضع للامحدودية (لاحتمية) قوانين الكم أو غير ذلك، لا يمكن أن ننسب الفضل لأنفسنا فيما يحدث. لا يوجد تجميع لهذه الحقائق يمكن أن يتوافق مع المفهوم الشهير للإرادة الحرة.



# الفصل الرابع:

"الإختيارات، الجهود، والنوايا"

عندما ننظر إلى السلوك الإنساني، يبدو الفارق بين الفعل المتعمد، الفعل الإختياري، والحادثة مهم للغاية، كما سوف نرى، هذا الفارق سيوضع فى الإعتبار - ومعه أكثر أخلاقياتنا وأهتماماتنا القانونية أهمية- عندما نظرد فكره الإرادة الحرة نهائيا.

يبدو أن حالات معينة من الوعى تظهر تلقائيا، وراء دائرة نوايانا. حالات أخرى تبدو ذاتية النشأة، متعمدة وخاضعة لإراداتنا. عندما أسمع صوت أوراق الشجر تتحرك خارج نافذتى، إنها تصطدم بوعىي فحسب: لم أقم بخلقها، ولا أستطيع ايقافها بإرادتى. يمكننى محاولة وضع الصوت خارج نافذتى بالتركيز على شئ آخر- كتابتى على سبيل المثال- وهذا التصرف بتحويل الإنتباه يبدو مختلف عن مجرد سماع صوت. اننى "أقوم به". فى حدود معينة، يبدو أننى أختار ما أنتبه له. يتم اقحام صوت أوراق الشجر، لكن يمكننى أن أقتنص دائرة انتباهى للحظة التالية وأوجهها إلى مكان آخر. هذا الفارق بين الحالات الإرادية واللاإرادية للتفكير تنعكس على مستوى المخ لأنه تحكمها أنظمة مختلفة. والاختلاف بينهم ينبغى جزئيا أن يُنتج الإحساس بأنه يوجد نفس واعية تتمتع بحرية الإرادة.

كما بدأنا نرى، على الرغم من ذلك فإن هذا الشعور بالحرية يظهر نتيجة لجهلنا من لحظة إلى أخرى بالأسباب المسبقة لأفكارنا وأفعالنا. عبارة "الإرادة الحرة" تصف ماهية الشعور أن يتم تعريفك بحالات عقلية كما تظهر في الوعي. أفكار مثل "ما الذي يجب أن أهديه لابنتي في عيد ميلادها؟ أعرف الإجابة، سوف أخذها إلى متجر الحيوانات الأليفة لكي تختار سمكة استوائية" تعبر عن الحقيقة الواضحة بوجود اختيار حر. لكن، من منظور أعمق (بالحديث موضوعيا وذاتيا)، الأفكار تنشأ ببساطة بدون أن نؤلفها ومع ذلك تملأ أفعالنا.

ليس هذا معناه أن الإدراك الواعي والتفكير المتعمد لا يخدم أي غرض، في الواقع، كثير من سلوكنا يعتمد عليهم. من المحتمل أن أتحرك قليلا بدون وعي في مقعدى، لكن لا يمكن أن أقرر بلا وعي أن الألم في ظهري يتطلب زيارة لمعالج بدنى. لكي أقرر ذلك، يجب أن أكون واعى بالألم وأن أكون متحفظ بشكل واعى

لفعل شئ حيال الأمر. ربما من الممكن بناء روبوت قادر على على هذه الحالات، لكن في حالتنا، بعض السلوكيات يبدو أنها تتطلب حضور فكر واعى. ونحن نعلم أن أنظمة الدماغ التي تسمح لنا بالتأمل في خبرتنا تختلف عن تلك المعنية حين نتصرف بشكل تلقائى استجابة للمؤثرات. إذن يصبح الوعى فى بهذا المفهوم ليس بغير ذات أهمية. كذلك عملية الوعى بالألم فى ظهري بكاملها، التفكير فيه، والبحث عن علاج له ينتج من عمليات لست على وعى كامل بها. هل قمت أنا – الشخص الواعى- بإيجاد ألمى؟ لا لقد ظهر ببساطة. هل قمت بإنشاء أفكار عنه والتي ادت الى أن أفكر فى العلاج الجسدى؟ لا لقد ظهروا هم أيضا ببساطة. عملية التفكير المتعمد هذه، مع اختلافها عن الإستجابة الغير واعية، لا تقدم أساس لحرية الإرادة.

كما أشار دان دانيت وآخرون، يخلط الناس عامة بين الحتمية

**determinism**

**والجبرية Fatalism.**

هذا يؤدي إلى ظهور أسئلة مثل "إذا ما كان كل شيء محدد، لم على أن أفعل أي شيء؟ لم لا أجلس فقط وأرى ما سيحدث؟" هذا خلط واضح. أن تجلس فقط وترى ما سيحدث هو في حد ذاته خيار شخصي له نتائجه. كما أنه صعب التنفيذ: جرب فقط أن تبقى في فراشك طوال اليوم منتظرا أن يحدث شيء؛ سوف تجد نفسك مهاجم بدافع أن تنهض وتفعل شيء ما، والذي سوف يتطلب مجهود بطولى لمقاومته.

حقيقة أن خياراتنا تعتمد على مسببات مسبقة لا تعنى أنها غير مهمة. إذا لم أقرر كتابة هذا الكتاب، لما قام بكتابة نفسه. خيارى بأن أكتبه كان بلا شك السبب الرئيسى فى ظهوره للوجود. القرارات، النوايا، المجهودات، الأهداف، قوة الإرادة، .. إلخ. هى حالات سببية للمخ، تؤدى إلى سلوكيات معينة، والسلوكيات تؤدى إلى نتائج فى العالم.

الاختيارات الإنسانية إذن مهمة كما يؤمن هواة الإرادة الحرة. لكن الاختيار التالى الذى تقوم به سوف يخرج من ظلام مسببات مسبقة لم توجد لها أنت كشاهد واعى على التجربة.

تبعاً لذلك، مع صحة القول بأن الشخص كان ليفعل شئ مخالف إذا ما أراد فعل شئ مخالف، إلا أن هذا لا يقدم نوع حرية الإرادة التي يفضلها معظم الناس، لأن خيارات شخص ما تظهر فقط في عقله كما لو كانت نابعة من الفراغ. من منظور ادراكك الواعي، أنت لم تعد مسئول عن الشئ القادم الذي سوف تفكر فيه (ومن ثم تفعله) بنفس درجة مسئوليتك عن ولادتك في هذا العالم.

فلنفترض أن حياتك قد خرجت عن المسار. لقد أعدت أن تكون متحفز، تلهمك الفرص، ولائق بدنياً، لكنك الآن كسول، تفقد الثقة بسهولة، وزائد الوزن. كيف أصبحت هكذا؟

بإمكانك أن تحكى لنا قصة عن كيف تفككت حياتك، لكن لن يمكنك حقيقة أن تفسر لم تركت ذلك يحدث. والآن تريد أن تهرب من هذا الاتجاه المتدنى وتغير نفسك بتصرف إرادى.

بدأت فى قراءة كتب المساعدة الذاتية. تغير نظامك الغذائى وتنضم إلى صالة رياضية. تقرر أن تعود



للدراصة. لكن بعد 6 أشهر من المجهود؛ لست أقرب للحياة التي تريدها أكثر مما كنت من قبل. لقد فشل الكتاب في إحداث تأثير بك؛ ثبت أن نظامك الغذائي ونظام اللياقة البدنية من المستحيل المحافظة عليهم؛ وأصابتك الملل من الدراسة فتوقفت. لماذا صادفت العديد من العقبات في نفسك؟ ليس لديك فكرة. لقد حاولت أن تغير عاداتك، لكن عاداتك تبدو أقوى منك. كثير منا يعلم كيف يكون الفشل بهذا الشكل، وهذه الخبرات لا توحى ولو قليلا بحرية الإرادة.

لكنك صحت هذا الصباح تشعر بعزيمة أكبر. كفى! أنت الآن تملك إرادة فولاذية. قبل أن تغادر فراشك كان لديك فكرة عبقرية لموقع ويب، واكتشاف أنه يمكنك الحصول على اسم نطاق

**domain name**

مقابل 10 دولار قد ملأك ثقة. أنت الآن صاحب مشروع! تشارك فكرتك مع عدد من الأشخاص الأذكى، وفي اعتقادهم أنه من المضمون أنك ستصبح ثرى. الرياح خلفك، أشرعتك ممتلئة، وتغير اتجاهك بعنف. وكما يتضح أن صديق لك هو أيضا صديق

مقرب لـ تيم فارييس، المدرب الشهير لنمط الحياة واللياقة البدنية. يعرض فارييس أن يتشاور معك عن نظامك الغذائي وطريقتك في التمرين. يساعدك هذا الإجتماع كثيرا، بعد ذلك تكتشف مستودع من الإنضباط في نفسك لم تكن تعلم بوجوده. في خلال الأربعة شهور تستبدل 20 باوند من الدهون بـ 20 باوند من العضلات. وزنك مازال كما هو، لكنك تحولت تماما. أصدقائك لا يصدقون ما حققته. حتى أعدائك بدأوا يسألونك النصيحة.

تشعر بشكل مختلف تماما حيال حياتك، والدور الذي لعبه الإنضباط، الاختيار والمجهود في إعادتك إلى الحياة لا يمكن إنكاره. لكن كيف يمكنك أن تفسر قدرتك على فعل هذا المجهود الآن وليس منذ سنة؟ من أين أتت فكرة موقع الويب هذه؟ لقد ظهرت فقط في عقلك. هل قمت – كوكيل واعى كما تشعر بنفسك- بخلقها؟ (إذا ما كان الأمر كذلك لما لا تقوم بخلق الفكرة التالية الآن؟) كيف يمكنك تفسير التأثير الذي أحدثته نصيحة تيم فارييس لك؟ كيف يمكنك تفسير قدرتك على الإستجابة لها؟

إذا ما أعرت حياتك الداخلية إنتباهك، سوف ترى أن

ظهور الاختيارات، المجهودات والنوايا هو عملية غامضة في الأساس. نعم، يمكنك أن تقرر البدء في نظام غذائي – ونعلم الكثير عن المتغيرات التي سوف تجعلك تلتزم به – لكن لا يمكنك أن تعلم لم أخيرا كنت قادر على الإلتزام بهذا النظام في حين أن كل محاولاتك السابقة قد باءت بالفشل. يمكنك أن تمتلك قصة لتخبرها عن سبب كون الأشياء مختلفة هذه المرة، لكنها لن تكون أكثر من وصف لوظيفة خاصة بأحداث لم تملك سيطرة عليها. نعم يمكنك أن تفعل ما تريد، لكن لا يمكنك تفسير حقيقة أن رغباتك تؤثر في حالة ما ولا تؤثر في الأخرى (وبالتأكيد أنت لا تستطيع اختيار ما تريده مقدما). لقد أردت إنقاص وزنك لسنوات. ثم أردت ذلك "فعلا". ما الفرق؟ أيا ما كان الفرق، هو ليس شئ قمت بإيجاده.

أنت لست مسيطرا على عقلك، لأنك -كوكيل واعى- تمثل فقط جزء من عقلك، تعيش تحت رحمة أجزاء أخرى. يمكنك أن تفعل ما تقرر فعله، لكن لا يمكن تقرير ما سوف تقررره. بالطبع يمكنك أن تصنع إطار حيث تصبح بعض القرارات أرجح من غيرها، يمكنك على سبيل المثال تنظيف بيتك من كل الحلوى، لتتأكد أنك على الأرجح لن تأكل الحلوى في المساء، لكن لا

يمكنك معرفة لم وضعت هذا الإطار اليوم وليس  
الأمس.

إذن الأمر ليس أن قوة الإرادة غير مهمة أو كون علم  
البيولوجي يقوضها. قوة الإرادة نفسها هي ظاهرة  
بيولوجية. بإمكانك تغيير حياتك، وتغيير نفسك، بالجهد  
والنظام، لكنك تملك قدرة على الجهد والنظام بالقدر  
الذي لديك في هذه اللحظة، ليس أكثر بمثقال ذرة - ولا  
أقل. أنت محظوظ في هذا الجانب أو لا، ولا يمكنك  
صنع حظك.

كثير من الناس يعتقدون أن الحرية الإنسانية تتمثل في  
قدرتنا على فعل - بعد التأمل- ما يجب علينا فعله،  
والذي يعنى غالبا التغلب على رغباتنا قصيرة المدى  
لصالح أهدافنا طويلة المدى أو حكما الأفضل. هذه  
بالتأكيد قدرة يمتلكها الناس، بدرجة أكبر أو أقل،  
والتي يبدو أنها تنقص باقى الحيوانات، لكنها مع ذلك  
قدرة لعقولنا لها جذور فى اللاوعى.

أنت لم تقم ببناء عقلك. وفى اللحظات التى يبدو أنك  
تبنيه، عندما تبذل جهد فى تغيير نفسك، اكتساب  
المعرفة، أو اتقان مهارة، الأدوات التى تملكها هى

التي ورثتها من اللحظات الماضية.

الاختيارات، المجهودات، النوايا، والمنطق يؤثر على سلوكنا، لكنهم أنفسهم جزء من سلسلة من المسببات التي تسبق الإدراك الواعي والتي لا نملك سيطرة مطلقة عليها. اختياراتي مهمة، وهي مسارات نحو صنع اختيارات أكثر حكمة، لكن لا يمكنني اختيار ما أختاره. وإذا ما ظهر أنني أفعل – على سبيل المثال، بعد التراجع بين اختياريين- فأنا أيضا لم أختار ما أخترت أن أختاره. يوجد هنا تراجع ينتهي دائما في الظلام. لا بد أن اتخذ خطوة أولى أو أخيرة، لأسباب حتما ستبقى غامضة.

يعتقد كثير من الناس أن مشكلة التراجع هي مشكلة غير حقيقية. بعض التكاملين

**(compatibilists)**

يصرون على أن حرية الإرادة هي مرادف لفكرة أن الشخص كان بإمكانه التفكير أو التصرف بشكل مختلف. لكن، القول بأنه كان بإمكانك التصرف بشكل مختلف هو مجرد أن تفكر "كان بإمكانى فعل شئ

مختلف" بعد فعل ما فعلته فى الواقع. هذا تأكيد فارغ. يخلط بين أمل فى المستقبل مع تفسير أمين للماضى. ما الذى سأفعله لاحقاً، ولم؟ يبقى فى الأساس لغز، والذى يتم تحديده بشكل كامل عن طريق الحالة السابقة للكون وقوانين الطبيعة (شاملاً دور الصدفة). أن أعلن حرىتى يعادل القول "لا أعلم لم فعلتها، لكنه نوع الأشياء التى أميل إلى فعلها، ولا أمانع أن أفعلها."

أحد أكثر الأفكار الوجودية تحديثاً (ربما الوحيدة) هى أننا أحرار أن نفسر ونعيد تفسير معنى حيواننا. يمكنك أن تعتبر زواجك الأول – والذى انتهى بالطلاق- فشلاً، أو اعتباره ظرف تسبب فى نضجك بطريقة كانت حاسمة لسعادتك المستقبلية. هل تتطلب حرية التفسير هذه إرادة حرة؟ لا، إنها تقترح ببساطة أن الطرق المختلفة من التفكير لها عواقب مختلفة. بعض الأفكار محببة ومضعفة للعزيمة؛ البعض الآخر يلهمك. يمكننا أن نتابع أى خط من الأفكار نريده، لكن اختيارنا هو نتاج أحداث مسبقة لم نوجدنا.

فكر لدقيقة فى السياق الذى سوف يحدث فيه قرارك القادم: أنت لم تختار أبويك أو الوقت والمكان الذى

ولدت فيه. لم تختَر جنسك أو معظم خبرات حياتك. لا تملك أى سيطرة على الجينوم الخاص بك أو عملية تطور مخك. وعقلك الآن يقوم بعمل اختيارات على أساس تفضيلات ومعتقدات توصلت إليها خلال عمرك، عن طريق جيناتك، تطورك الجسدى منذ إنشائك، والتفاعل الذى حدث مع الناس، الأحداث، والأفكار. أين الحرية فى ذلك؟ نعم، أنت حر لتفعل ماتريد الآن. لكن من أين جاءت رغبتك؟

بينما ينتظر النيويورك تايمز، انتقد الفيلسوف ايدى ناميز حجج كالتى قدمتها هنا:

العديد من الفلاسفة – وأنا منهم- يفهمون الإرادة الحرة على أنها مجموعة من القدرات على تخيل مسارات الأحداث فى المستقبل، دراسة سبب اختيار الشخص لهم، تخطيط سلوك الشخص فى ضوء هذه الدراسة والتحكم فى التصرف فى مواجهة الرغبات المتنافسة. نحن نتصرف بإرادتنا الحرة إلى الحد الذى نمتلك فيه الفرصة للتدريب على هذه القدرات، دون ضغط خارجى أو داخلى غير مسبب نحن مسؤولون

عن أعمالنا تقريباً إلى حدّ أننا نمتلكُ هذه القدراتِ  
ولدينا الفرصة لممارستهم.

لا يوجد شك أن البشر يمكنهم التخيل والتخطيط  
للمستقبل، وزن الرغبات المتنافسة.. إلخ، وأن فقدان  
هذه القدرات سوف يقلل منا. الأنواع المختلفة من  
الضغوط الداخلية والخارجية يمكن أن تكون غائبة أو  
حاضرة عندما يتخيل الشخص أو يخطط أو يتصرف،  
وهذه الضغوط تحدد مفهومنا لكونه مسئول أخلاقياً  
عن سلوكه أو لا. على الرغم من ذلك، هذه الظواهر لا  
علاقة لها بالإرادة الحرة.

على سبيل المثال، في مراهقتي وبداية العشرينات كنت  
طالباً مجداً للفنون القتالية. تدرّبت باستمرار وقمت  
بتقديم دروس في كليتي. مؤخراً، بدأت بالتدريب  
مجدداً، بعد فجوة أكثر من عشرين عاماً. يبدو أن  
توقفي وتجديدي لهوايتي في فنون القتال كلاهما تعبير  
خالص عن الحرية التي نسبها ناميز لي. لم أكن تحت  
"ضغوط غير مسببة داخلية وخارجية". لقد فعلت  
بالضبط ما أردت فعله. لقد أردت التوقف عن التدريب



فتوقفت، أردت البدء مجددا وأنا الآن أتدرب عدة مرات اسبوعيا. كل هذا كان مرتبطا بتفكير واعى وفعل يظهر فيه التحكم الواضح فى النفس.

على الرغم من ذلك، عندما أبحث عن السبب النفسى لسلوكى، أجده غامض تماما. لماذا توقفت منذ 20 عاما؟ حسنا، أشياء معينة أصبحت أكثر أهمية لى، ولماذا تحديدا فى لحظتها ولهذه الدرجة؟ ولماذا عاد شغفى بالفنون القتالية للظهور فجأة بعد كل عقود من السبات؟ يمكننى أن أزن بوعى تأثيرات عوامل معينة، على سبيل المثال، لقد قرأت مؤخرا كتاب رورى ميلر الرائع

## "Meditations on Violence"

تأملات حول العنف. لكن لماذا قرأت هذا الكتاب؟ ليس لدى فكرة. ولماذا وجدته محفز؟ ولماذا كان كافيا لتحريكى (لو كان حقيقة السبب المباشر لسلوكى)؟ ولماذا كل هذا النشاط؟ أنا أمارس الآن نوعين من الفنون القتالية وكذلك أتدرب مع ميلر وخبراء آخرين فى الدفاع عن النفس. ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟ بالطبع يمكننى أن أحكى قصة حول لم أفعل ما أفعله،

والتي سوف توضح لم أعتقد أن هذا التدريب فكرة جيدة، لماذا أستمتع به.. إلخ. لكن التفسير الحقيقية لسلوكي غير واضح لي. ويتضح تماما أنني كمراقب واعي على تجربتي لست السبب العميق له.

بعد قراءة الفقرة السابقة، بعضكم سوف يفكر، "كتاب ميلر هذا يبدو ممتع!" وسوف تشترونه. بعضكم لن يفكر في شئ كهذا. من هؤلاء الذين سوف يشترون الكتاب، البعض سوف يجده مفيد جدا. آخرون سوف يتركونه دون أن يفهموا المغزى. بعضهم سيضعه على الرف وينسى قراءته. أين الحرية في أي من هذا؟ أنت كوكيل واعي تقرأ هذه الكلمات لست بموضع يتيح لك تحديد لأي السلال ستنتهي. وإذا ما قررت أن تبدل السلال "لم أكن سأشترى الكتاب، لكن الآن سأفعل فقط لأغيبك"، لا يمكنك تفسير هذا القرار أيضا. سوف تفعل أيا ما سوف تفعله، ولا معنى للجزم بأنك كنت قادر على فعل شئ آخر.



# الفصل الخامس:

"هل من الممكن أن تكون الحقيقة  
سيئة لنا؟"

يعتقد كثير من الناس ان حرية الإرادة هي وهم ضروري، وبدونها سوف نفشل في أن نحيا حياة خلاقة ومُرضية. هذا القلق ليس بلا مبرر تماما. وجدت إحدى الدراسات أن قراءة الحالات لحجج ضد وجود الإرادة الحرة جعلتهم أكثر عرضة للغش في اختبارات لاحقة.

دراسات أخرى وجدت أن الحالات تكون أقل استعدادا للمساعدة وأكثر عدوانية. من المعقول جدا أن معرفة (أو تأكيد) حقائق معينة عن العقل الإنساني يمكن أن يكون له عواقب نفسية و/أو ثقافية مؤسفة. على الرغم من ذلك، لست قلقا من تقليل أخلاقيات قرائى بنشر هذا الكتاب.

أتحدث من تجربة شخصية، أعتقد أن فقدان الحس بالإرادة الحرة قد حسن أخلاقي، بزيادة مشاعر التعاطف والصفح، وتقليل إحساسي بالإستحقاق لثمار حظى السعيد. هل هذه الحالة العقلية مرغوبة دائما؟ على الأرجح لا. إذا ما كنت أقدم دروس دفاع عن النفس لسيدات، سوف أعتبر أنه سيؤدي إلى نتائج عكسية تأكیدی أن كل السلوك الإنساني- شاملا رد فعل المرأة على الاعتداء الجسدى- يحدده حالة مسبقة

للكون، وأن كل المغتصبين هم فى النهاية غير  
محظوظين كونهم ضحايا لأسباب مسبقة لم يتسببوا  
فيها. هناك حقائق علمية، أخلاقية وعملية ملائمة لكل  
المناسبات و أمر مثل "فقط أقتلعي عين اللعين" له  
بالتأكيد مكانه. لا يوجد تناقض هنا، رؤيتنا للناس  
كمجموعة من الذرات لا يخدم مصالحنا فى الحياة  
دائما، لكن هذا لا يبطل جدوى الفيزياء.

فقدان الإيمان بالإرادة الحرة لا يجعلنى قديراً

(fatalistic)

، فى الواقع، لقد زاد من شعورى بحريتى. آمالى،  
مخاوفى، واضطراباتى العصبية بدت أقل شخصية  
وغير قابلة للمحو. لا يسعنى معرفة كم سأتغير  
مستقبلا. كما أن المرء لا يتوصل إلى استنتاج دائم  
حول نفسه على أساس تجربة قصيرة من عسر  
الهضم، كذلك لا يحتاج المرء للقيام بذلك على أساس  
تفكيره وسلوكه لمساحات شاسعة من الوقت فى  
الماضى. يمكن لتغيير خلاق فى النظام – تعلم مهارات  
جديدة، تكوين علاقات جديدة، وتبنى عادات جديدة -  
أن يحول حياة الإنسان بشكل جذرى.

يمكن للحساسية للمسببات الخلفية للأفكار والمشاعر أن تسمح -مفارقة- بقدر أكبر من السيطرة الإبداعية على حياة الشخص. أن تتشاحن مع زوجتك لأنك في مزاج سيء تعد طريقة، طريقة أخرى أن تدرك أن مزاجك وسلوكك تسبب فيه انخفاض نسبة السكر في الدم. هذا الفهم يكشف لك بالطبع حقيقة أنك دمية بيوكيميائية، لكنه أيضا يسمح لك أن تمسك بأحد خيوطك: قليل من الطعام قد يكون كل ما تحتاجه شخصيتك. أن نذهب إلى ما وراء أفكارنا ومشاعرنا الواعية قد يسمح لنا بقيادة مسارات أكثر ذكاء لحياتنا (بالطبع مع العلم بأننا في نهاية الأمر يتم توجيهنا).





# الفصل السادس:

"المسئولية الأخلاقية"

لقد أعطانا الإيمان بالإرادة الحرة مفاهيم كالخطيئة والتزامنا نحو العدالة العقابية. لقد وصفت المحكمة الأمريكية العليا الإرادة الحرة أنها بمثابة أساس لنظامنا القانوني، هذا مختلف عن "وجهة نظر حتمية لسلوك الإنسان لا تتفق مع المبادئ الأساسية لنظامنا الجنائي" (الولايات المتحدة ف. جرايسون، 1978). إن أي تطور ثقافي يهدد فكرة الإرادة الحرة يضع أخلاقيات معاقبة الناس على سلوكياتهم السيئة موضع التساؤل.

القلق الأكبر بالطبع أنه يبدو أن بمناقشة أمينة للأسباب الأساسية للسلوك الإنساني لا يبدو أن هناك مجال للمسئولية الأخلاقية. إذا ما نظرنا للناس كأنماط مناخية عصبية، كيف بإمكاننا الحديث بشكل متجانس عن الصح والخطأ و الخير والشر؟ هذه الأفكار تبدو وكأنها تعتمد على كون الناس لديهم حرية التفكير والتصرف. وإذا ما بقينا ملتزمين بالنظر إلى الناس كما هم يجب أن نجد فكرة ما للمسئولية الشخصية لتتسجم مع الحقائق.

لحسن الحظ، يمكننا ذلك. ما الذي يعنيه أن تتحمل المسئولية عن أفعالك؟ بالأمس ذهبت إلى السوق، كنت

بكامل ملابسى، ولم أسرق أى شىء، ولم أشتري أى علب من الأنشوجة. القول بأننى كنت مسئول عن سلوكى، هو ببساطة القول بأن متوافق مع أفكارى، نواياي، اعتقاداتى، ورغباتى بما يكفى لإعتبارى امتداد لهم. لو وجدت نفسى أقف عاريا فى السوق، أنتوى سرقة ما أستطيع حمله من علب الأنشوجة، سوف يكون تصرفى بعيد تماما عن شخصيتى، سوف أشعر أننى لم أكن بكامل عقلى، أو أننى لم أكن مسئول عن تصرفاتى. الحكم على المسئولية يعتمد على التركيبية الكلية لعقل الإنسان، وليس على ميتافيزيقيا السبب والتأثير العقلي.

بالنظر إلى الأمثلة التالية لسلوك إنسانى عنيف:

1- صبى فى الرابعة من عمره كان يلعب ببندقية أبيه وقتل امرأة شابة، البندقية كانت ممتلئة وغير مؤمنة فى درج خزانة.

2- صبى فى الثانية عشرة من عمره كان ضحية اعتداء بدنى وعاطفى أخذ ببندقية أبيه وقام بقتل امرأة شابة عمدا لأنها كانت تغيظه.

3- رجل فى الخامسة والعشرين من عمره كان عرضة لإعتداء مستمر فى طفولته أطلق الرصاص على صديقه الحميمة فقتلها لأنها تركته من أجل رجل آخر.

4- رجل فى الخامسة والعشرين من عمره تمت تربيته على يد أبوين رائعين، ولم يتعرض للإعتداء مطلقا أطلق النار عمدا على فتاة شابة لم يقابلها سابقا "فقط من أجل المرح".

5- رجل فى الخامسة والعشرين من عمره تمت تربيته على يد أبوين رائعين، ولم يتعرض للإعتداء مطلقا أطلق النار عمدا على فتاة شابة لم يقابلها سابقا "فقط من أجل المرح". كشف تصوير مخ الرجل بالرنين المغناطيسى عن ورم بحجم كرة الجولف فى الفص الجبهى للقشرة المخية (المنطقة المسئولة عن التحكم فى الدوافع السلوكية والعاطفية).

فى كل حالة ماتت امرأة شابة، وفى كل مرة كان موتها نتيجة أحداث تظهر فى مخ إنسان آخر. لكن درجة الغضب الأخلاقى التى نشعر بها تعتمد على الظروف الخلفية الموصوفة فى كل حالة. نعتقد أنه لا يمكن لطفل فى الرابعة من عمره أن يقتل حقا شخص ما عن

عمد كما أن نوايا شخص في الثانية عشرة لا يمكن أن تكون بنفس عمق دوافع شخص بالغ. في الحالات رقم 1 و 2، نعلم أن مخ القاتل لم ينضج بشكل كامل وأنه لم يخول بعد كل مسؤولياته كشخص. يبدو أن تاريخ الإساءة في الحالة رقم 3 يخفف من ذنب الرجل: هذه جريمة عاطفية ارتكبها شخص عانى على أيدي الآخرين. في الحالة رقم 4 لم يكن هناك إساءة، والدافع يصنف المعتدى كمختل عقليا. الحالة رقم 5 تتضمن نفس السلوك والدافع المختل، لكن وجود ورم بالمخ بشكل ما يغير الحسابات الأخلاقية تماما: بالنظر إلى مكانه، يبدو أنه يعفى القاتل من كل مسؤولية عن جريمته. وتحدث هذه المعجزة حتى لو كانت خبرة الرجل الذاتية مطابقة لتلك لدى المختل في الحالة رقم 4، في اللحظة التي نفهم فيها أن مشاعره لها سبب جسدی، ورم في الخ، لا يسعنا إلا أن نراه ضحية لتركيبته البيولوجية.

كيف يمكن فهم هذا التدرج في المسؤولية الأخلاقية في حين أن المخ وتأثير خلفياته في كل حالة – ولنفس الدرجة تقريبا- هو السبب الحقيقي لموت المرأة؟

لا نحتاج إلى أي أوهام عن وجود وكيل مسبب يعيش

داخل العقل البشرى لكي ندرك أن بعض الناس  
خطرين. أكثر ما ندينه في شخص آخر هو النية  
الواعية للإيذاء. مازال بإمكاننا الحكم على درجات  
الذنب بالإشارة إلى حقائق الحالة: شخصية المتهم،  
مخالفاته المسبقة، طرق تفاعله مع الآخرين،  
استخدامه للكحوليات، اعترافاته عن دوافعه بخصوص  
الضحية، إلخ. إذا ما بدت أفعال شخص ما بعيدة تماما  
عن شخصيته، قد يؤثر هذا على رؤيتنا للخطر الذي  
يمثله الآن على الآخرين. لو بدأ المتهم غير نادم  
ومتلهف للقتل مرة أخرى، لا نحتاج أن نؤمن بفكرة  
الأرادة الحرة لكي نعتبره خطر على المجتمع.

لماذا يعد القرار الواعي بإيذاء شخص آخر يستحق  
اللوم بشكل خاص؟ لأن ما نفعله نتيجة لتخطيطنا  
الواعي يعبر بشكل كامل عن خصائص عقولنا،  
معتقداتنا، رغباتنا، أهدافنا، أحكامنا المسبقة، إلخ. لو  
أنك بعد أسابيع من التروى، البحث المكتبي، والجدال  
مع أصدقائك ما زلت تقرر قتل الملك، حسنا، إذن قتل  
الملك يعبر عن أى نوع من الأشخاص أنت حقيقة.  
المغزى ليس أنك السبب المطلق والمستقل لأفعالك؛  
المغزى أنك لأى سبب كان، تمتلك عقل قاتل الملك.

بعض المجرمين يجب أن يسجنوا لمنعهم من إيذاء آخرين. التفسير الأخلاقي لذلك مباشر تماما: بهذه الطريقة سوف يكون الآخرين جميعا أفضل حالا. الإستغناء عن وهم الإرادة الحرة سوف يسمح لنا بالتركيز على الأشياء المهمة، تقييم المخاطر، حماية الأبرياء، ردع الجريمة، إلخ. على الرغم من ذلك، يبدأ بعض الحدس الأخلاقي في الإسترخاء في اللحظة التي ننظر فيها بشكل أشمل للمسببات. فور أن ندرك أنه حتى أكثر الضواري إثارة للرعب – بالمعنى الحقيقي- حظهم سيئ لكونهم ما هم عليه، منطق الكراهية (مقابل الخوف) سوف يبدأ في الإنهيار. مرة أخرى، حتى لو كنت تؤمن أن كل إنسان لديه روح خالدة، الصورة لا تتغير: أي شخص ولد بروح مختلة هو سيئ الحظ للغاية.

لمادت غير ورم المخ وجهة نظرنا في الموقف بشكل جذري في الحالة رقم 5؟ سبب واحد أن تأثيره قد وقع على شخص كان سوف يتصرف –لا بد من الافتراض- بطريقة مختلفة. الورم وتأثيره كلاهما يبدو عرضي، وهذا يجعل المعتدى يبدو ضحية بشكل تام لتركيبته البيولوجية. بالطبع إذا لم نستطع علاج هذه الحالة، سوف نحتاج إلى احتجازه لمنع من ارتكاب جرائم

أخرى، لكننا لن نكرهه أو ندينه كشرير. هذه جبهة واحدة أو من أن حدسنا الأخلاقي يجب أن يتغير بشأنها. كلما ازداد فهمنا للعقل البشرى من ناحية المسببات، كلما وجدنا صعوبة في التمييز بين حالتين مثل رقم 4 و 5.

الرجال والنساء المحكوم عليهم بالإعدام لديهم تركيبات من الجينات السيئة، آباء سيئين، بيئة سيئة، وأفكار سيئة (والبرئ بالطبع لديه درجة عالية من سوء الحظ). أى من هذه المقادير تحديدا كانوا مسئولين عنه؟ لا يوجد بشرى مسئول عن جيناته أو طريقة تربيته، على الرغم من ذلك لدينا أسباب كافية للاعتقاد أن هذه العوامل تحدد شخصيته. يجب أن يعكس نظام العدالة لدينا الفهم بأن أى منا كان لتعامله الحياة بشكل مختلف. فى حقيقة الأمر، يبدو عدم إدراك تدخل الحظ فى الأخلاقيات هو نفسه شئ لا أخلاقي.

لنرى كيف يجب أن يتحول حدسنا الأخلاقي بالكامل، تخيل ما يمكن حدوثه اذا ما اكتشفنا علاج للشر الإنسانى. تخيل لو أن كل تغيير ذو صلة فى الدماغ البشرى يمكن عمله الآن بشكل أرخص، بدون ألم، وبشكل آمن. فى الحقيقة، يمكن وضع العلاج مباشرة



فى الإمدادات الغذائية، مثل فيتامين د. لن يكون الشر سوى نقص فى التغذية.

لو تخيلنا وجود علاج للشر، سوف يمكننا رؤية أن دوافعنا الإنتقامية خاطئة أخلاقيا. تخيل على سبيل المثال، امكانية حجب علاج الشر عن قاتل كجزء من عقابه. هل سيكون لذلك أى معنى على الإطلاق؟ ما الذى يمكن أن يعنيه القول بأن شخص ما يستحق حجب العلاج عنه؟ ماذا لو كان العلاج متوفر قبل جريمته؟ هل كان سوف يظل مسئول عن أفعاله؟ يبدو من المرجح جدا أن من هم على علم بحالته انت ستتم اتهامهم بالإهمال. هل سيكون من المنطقى حرمان الشخص فى الحالة رقم 5 من الجراحة كعقاب إذا ما علمنا أن ورم المخ كان هو السبب الفعلى لعنفه؟ بالطبع لا. تبدو نتائج ذلك محتومة: يعتمد الحافز للعقوبة على عدم رؤية المسببات الخلفية للسلوك الإنسانى.

برغم تعلقنا بفكرة الإرادة الحرة، يعلم معظمنا أن خلل فى المخ بإمكانه أن يتفوق على أفضل النوايا فى العقل. هذه النقلة فى الفهم تمثل تقدم نحو نظرة أكثر عمقا، أكثر اتساقا وأكثر رحمة لإنسانيتنا المشتركة،

ويجب أن نلاحظ أنه تقدم بعيدا عن الميتافيزيقيا الدينية. قليل من المفاهيم قدمت منظور للقسوة الإنسانية أكبر من فكرة روح غير أخلاقية والتي تقف مستقلة عن كل التأثيرات المادية، تتراوح من الجينات إلى النظم الاقتصادية. في إطار ديني، الإيمان بالإرادة الحرة يدعم فكرة الخطيئة، والتي يبدو أنها تبرر ليس فقط العقاب القاسي في هذه الحياة، لكن أيضا العقاب الأبدى في الحياة الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، وباللسخرية، أحد المخاوف المصاحبة لتقدمنا العلمي هو أن فهم أكثر إكتمالا لأنفسنا سوف ينزع عنا إنسانيتنا.

النظر للبشر كظواهر طبيعية لا يحتاج إلى إفساد نظامنا للعدالة الجنائية. إذا ما أمكنا احتجاز الزلازل والأعاصير عقابا لجرائمهم، سوف نبني لهم سجون أيضا. نحن نحارب الأوبئة الناشئة والحيوانات المفترسة كذلك. دون أن ننسب لهم إرادة حرة بشكل واضح، يمكننا أن نرد بوضوح على التهديد من الأشخاص الخطرين دون أن نكذب على أنفسنا بشأن الأصل المطلق للسلوك الإنساني. سوف نظل في حاجة إلى نظام عدالة جنائية والذي سوف يحاول أن يقيم بدقة الذنب والبراءة بجانب الأخطار المستقبلية التي

يمثلها المذنب على المجتمع. لكن منطق معاقبة الناس سوف ينتهي إلا إذا اكتشفنا أن العقوبة مكون أساسي للردع أو إعادة التأهيل.

يجب أن نعترف على الرغم من ذلك أن قضية العقوبة هي قضية صعبة. في مقال رائع في جريدة

## The New Yorker

، يكتب جاريد دياموند عن الثمن الغالي الذي ندفعه أحيانا عندما لا نتحقق رغبتنا في الثأر. قام بمقارنة تجربة شخصين: صديقه دانيال، ساكن جبال من غينيا الجديدة والذي انتقم لوفاة عمه؛

وصهره الراحل، والذي كان لديه الفرصة لقتل الرجل الذي قتل عائلته بالكامل أثناء الهولوكوست لكنه فضل أن يسلمه للشرطة. (بعد قضاء سنة واحدة في السجن، أطلق سراح القاتل). عواقب الأخذ بالثأر في الحالة الأولى وتركه في الحالة الثانية لا يمكن أن تكون أكثر وضوحا. في حين أن هناك الكثير ليقال ضد ثقافة الإنتقام لساكنى جبال غينيا الجديدة، انتقام دانيال سبب له ارتياح بالغ. بينما قضى صهر جاريد آخر 60 سنة

من حياته "يعذبه الندم والشعور بالذنب". من الواضح أن الإنتقام يلبي احتياج نفسى شديد لدى كثير منا.

نحن موجهون بعمق إلى تصور الناس كمؤلفين لأفعالهم، لكي نلقيهم مسئولين عن الخطأ الذى ارتكبه فى حقنا، ولكي نشعر أن هذه التجاوزات يجب أن تُعاقب. غالباً، العقاب الوحيد الذى يبدو مناسباً هو أن يعانى مرتكب الجريمة أو يخسر حياته. تبقى رؤية نظام للعدالة مستتير علمياً يمكن أن ينظم هذه الدوافع. من الواضح أنه ينبغي لتفسير كامل لأسباب السوء البشرى أن يخفف من ردنا الطبيعى على الظلم، على الأقل إلى درجة ما. أشك على سبيل المثال أن صهر جاريد كان ليعانى نفس الألم لو أن عائلته دهسها فيل أو قتلها الكوليرا. بشكل مشابه، يمكننا افتراض أن ندمه كان ليخفف بشكل كبير إذا ما علم أن قاتل عائلته قد عاش حياة أخلاقية بلا عيوب حتى قام فيروس بتدمير القشرة القبل-أمامية المتوسطة لمخه.

على الرغم من ذلك، من الممكن لشكل صورى من العقاب أن يكون أخلاقى - أو حتى ضرورى- إذا ما قاد الناس إلى التصرف بشكل أفضل مما كانوا ليفعلوا. سواء كان مفيداً التأكيد على عقوبة مجرمين معينين-

بدلاً من الإحتواء أو إعادة التأهيل – هو سؤال للعلم الإجتماعى والنفسى. لكن يبدو واضحاً أن الرغبة فى العقاب، والتي تتبع من فكرة أن كل شخص هو المؤلف الحر لأفكاره وأفعاله، تستند إلى وهم معرفى وعاطفى، وترسخ وهم أخلاقى.

طريقة واحدة للنظر إلى الصلة بين الإرادة الحرة والمسئولية الأخلاقية هى ملاحظة أننا بشكل عام ننسب هذه الخصائص للأشخاص فقط فيما يتعلق بما يمكن أن تردعه العقوبة.

لا يمكننى أن أعتبرك مسئولاً عن سلوكيات لا يمكنك التحكم فيها. إذا ما جعلنا العطس غير قانونى، على سبيل المثال، بعض الناس سوف يخالفون القانون بغض النظر عن خطورة العواقب. سلوك مثل الخطف، على الرغم من ذلك، يبدو أنه يتطلب تعمد واعى وجهد مستمر فى كل منعطف، من هنا يجب أن نتقبل الردع. إذا ما كان التهديد بالعقوبة سوف يجعلك تتوقف عن فعل ما تفعل، فإن سلوكك يقع ضمن المفاهيم التقليدية للإرادة الحرة والمسئولية الأخلاقية.

من الممكن أن يكون صحيح بأن العقوبة الصارمة –

بدلاً من مجرد الإحتواء وإعادة التأهيل- ضرورة لمنع جرائم معينة. لكن معاقبة الناس بشكل خالص من أجل أسباب نفعية (براجماتية) سيكون مختلف عن الأسلوب الذي نتبعه حالياً. بالطبع إذا ما كان معاقبة البكتريا والفيروسات سوف تمنع ظهور الأمراض الوبائية، سوف نطبق عدالتنا عليهم أيضاً.

يمكن تعديل مساحة واسعة من السلوكيات البشرية المختلفة عن طريق العقوبات والمحفزات، ونسب المسؤولية للأشخاص في هذا السياق هو طبيعي إلى حد ما. وقد يكون لا مفر منه على سبيل الإتفاق. كما يشير العالم النفسى دانيال وجر، فكرة الإرادة الحرة قد تكون أداة لفهم السلوك البشرى. القول بأن أحد الأشخاص إختار بحرية أن يبدد مدخرات زوجته على طاولة البوكر هو كالقول بأنه كان لديه الفرصة ليفعل غير ذلك ولا يوجد شئ بشأن ذلك غير مقصود. هو لم يلعب البوكر بالصدفة أو تحت سيطرة الوهم ولكن لأنه أراد ذلك، انتوى ذلك، وقرر ذلك، لحظة بعد لحظة. لبعض الأغراض، من المنطقى تجاهل بعض المسببات العميقة للرغبات والنوايا – الجينات، الامكانيات المتشابكة، إلخ..- والتركيز بدلاً من ذلك على الخطوط العريضة التقليدية للشخص. نحن نفعل ذلك عندما

نفكر فى خياراتنا وسلوكياتنا، لأنها الطريقة الأكثر  
حكمة لترتيب أفكارنا وأفعالنا. لما أطلب بيرة بدلا من  
النيبىذ؟ لأنى أفضل البيرة. لماذا أفضلها؟ لا أعلم، لكنى  
فى العموم لا أحتاج إلى السؤال. معرفتى بأنى أحب  
البيرة أكثر من النيبىذ هى كل ما أحتاج لكى أعلم كيف  
أصرف فى مطعم. أيا ما كان السبب، أفضل مذاق  
أفضل من غيره. هل هناك حرية فى ذلك؟ لا على  
الإطلاق. هل أستعيد حريتى بشكل سحرى إذا ما قررت  
أن أخالف تفضيلاتى وأطلب نيبىذ؟ لا، لأن جذور هذه  
النية سوف تبقى غامضة كالتفضيل نفسه.





***Telegram : @Arab\_books***



*@Arab\_books*

# FREE WILL

**SAM HARRIS**

*New York Times* bestselling author  
of *The End of Faith*